



مع كل ذلك التعتيم، فقد بقيت معالم المأساة وتفاصيلها المرهقة، محفورةً في ذاكرة الآباء والأجداد والشقيقات والأشقاء والعمّات والأعمام والخالات والأخوال، الذين كتب الله لهم الحياة، بعد أن فقدوا أربعين ألفاً من أرحامهم، ورأوا بأعينهم جنود (هولاكو سورية)، وهم يقتلون ويدمرون ويهتكون ويسرقون وينهبون ويعتقلون ويعذبون ويرُّون!.. كل ذلك ما يزال محفوراً في أخاديد الذاكرة، التي ما تزال تعرض شرائط الجريمة حيةً رطبةً بالغة الوضوح:

أولاً: سادية القتل لمجرد القتل

بلغت ذروة الإجرام والإرهاب لعصابة الحكم الأسدية بقيادة حافظ أسد).. بارتكاب مجزرة حماة الكبرى، التي خلّفت دماراً وضحايا، استحقت نتيجتها أن تسمى بـ (مأساة العصر)!.. فقد بدأت المأساة بتاريخ (2/2/1982)، واستمرت أربعةً وثلاثين يوماً، وارتكتبت جرائمها وحداتٌ من الجيش وسرايا الدفاع والوحدات الخاصة والمخابرات والأجهزة الأمنية والميليشيات الأسدية، التي أعملت بالمدينة قصفاً وحرقاً ورجماً بالصواريف وإبادةً، ما أدى إلى قتل حوالي (أربعين ألفاً) من المواطنين، وتهديم أحياء كاملةً في المدينة، و(88) مسجداً، وأربع كنائس، وتهجير عشرات الآلاف من السكان، واعتقال الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، وفقد الآلاف أيضاً!..

لقد كانت (مأساة حماة ومجزرتها الكبرى) المرهقة في عام 1982 م، تتويجاً لمرحلة الانفجار الشامل آنذاك في سورية، بسبب السياسة الاستئصالية للنظام الدكتاتوري، وبرهاناً للشعب على أنَّ هذا النظام القمعي لن يتخلّ عن ظلمه وبطشه ونهجه الاستبدادي مهما كلف ذلك من دماءً ودمار!.. لكنَّ حمامات الدم التي ارتكبها النظام الدكتاتوري، لم تستطع حل المشكلة السورية، بل زادتها تعقيداً، وإنَّ الرفض الشعبي لنهج القمع والاستبداد والديكتاتورية والأحادية.. ما تزال مستمرة، ولن تنتهي إلا بزوال الإرهاب السلطوي، فالوطن لكلِّ أبناءه، وليس لفئة أو حزبٍ أو طائفَةٍ بعينها، وليس أمام شعبنا وقواته الوطنية إلا اقتلاع العصابات الأسدية من جذورها، لأنَّها عصاباتٌ إجراميةٌ مستبدَّة.

إنَّ الوحشية الاستئصالية الدموية التي اتبّعها نظامُ الحكم الفاسد في حماة ، كانت متعددة الوجوه، يأتي في طليعتها: الوجه القاتل لمجرد القتل والتشفّي، انطلاقاً من حقدٍ طائفيٍّ أعمى، عملت شياطين الأسديين على تغذيته وحقنه في نفوس

المجرمين الشاذين، ليؤدوا في حماة دوراً مقدساً في عُرفِ هؤلاء الحاقدِين، الذين تُغذى سلوكهم أمراضٌ ورثوها عن الجهلة من عميان البصر والبصرة، وفاقدِي الضمائر الحية السوية، فكان العداون وسفك الدم.. لمجرد سفك الدم، وكانت الأحقاد التاريخية الدفينة تدفع بمحرمي حافظ الأسد وبقية الحاقدِين.. إلى سحق الحياة الإنسانية وكل مظاهرها الحضارية في حماة، فكان يمارس القتل على الهوية من غير تمييز، والقتل لم يكن يشفي أحقارهم، بل كانوا يعملون على التمثيل بجثث ضحاياهم بأبشع صورة وأسوأ أسلوب!..

بذلك أبيدت أسر كاملة في حماة، فمجازرة حماة الكبرى تكونت من عشرات المجازر في أرجاء المدينة، ثم في خارج المدينة وفي ضواحيها، التي سيق الناس إليها من مختلف الأعمار نساءً ورجالاً وأطفالاً، وبشكلٍ اعتباطي لا تفسير له، سوى الرغبة بقتل أكبر عددٍ ممكِّنٍ من سكان حماة، وبذلك أبيدت أسر كاملة من عائلات: المصري والصحن والزكار والكيلاني والقياسة والشيخ عثمان وموسى والدياغ والصمصام ومغيزيل والقرن ودبور وعلوان وحمود كوجان وأبو سن وعصفور.. وغيرها!..

لقد ورد في تقارير لجان حقوق الإنسان وصف لمجازر فرديةٍ وجماعية، وأفادت اللجنة السورية لحقوق الإنسان في تقريرها عن انتهاكات حقوق الإنسان خلال ارتکاب مجازرة حماة الكبرى (انظر تقرير اللجنة الصادر في 20 شباط 2002م).. أن الساحات العامة في المدينة، والمدارس، والمستشفيات، والمقابر، والملاعب.. تحولت إلى مسارح لمجازر جماعية.. على أن مجازرة (سريجين) كانت دقيقة الوصف، وصفها ناجون من المجزرة بعد أن شهدوا كل تفاصيلها، إذ سيق بعض السكان في إحدى عشرة ساحنةٍ إلى منطقة (سريجين) قرب حماة، وهناك تمت تصفيتهم في خنادق خاصة، كان قد صُنِّفَ فيها أيضاً أعداد سابقة من مختلف الفئات العمرية ومن الجنسين.. وذلك بعد نهب ما يحوزُّهم من أموالٍ ومقتنيات.. ودُفِنَت أفواج المذبوحين في مقابر جماعية، وبعض الضحايا عندما دُفِنوا كانوا مضرّجين بدمائهم وما يزالون جرحاً بين الحياة والموت!..

كما سجلَ تقرير اللجنة السورية لحقوق الإنسان نفسه مجازر: الملعب البلدي، وأحياء: البياض وسوق الشجرة والدباغة والباشورة والعصيدة والشرقية والشمالية والبارودية وجامع الخانكان.. وغيرها.. وراح ضحيتهاآلاف الأشخاص دون تمييز، سواء بالعمر أو بالجنس!..

لقد أتت المجازر الجماعية والفردية على أرواحآلاف الناس، واستمرت شهراً كاملاً دون توقف.. ولم يكن الهدف من ارتکاب هذه المجازر إلا القتل، القتل فحسب، بشكلٍ سادي حاقدٍ لم تعرف سورياً مثيلاً له في تاريخها!..

إنها صورة سريعة لсадية القتل الأسدية، تَصْفُّها ونهديها إلى أولئك الذين ما يزالون يطعنون شعب سورياً المكلوم بظهره غدرًا، أمام كاميرات التلفزيون السوري، تعبيراً عن مساندتهم للعصابة الحاكمة الفاسدة في دمشق.. مساندتها في قتل شعبنا، والاحتفال بأنخاب دمائنا.

* * *

ثانياً: انتهاكات وحشية بحق الأطفال والنساء والطاعنين في السن

خلال مجازرة حماة الكبرى، لم تسلم أية شريحة اجتماعيةٍ من جرائم الطغمة الأسدية.. فقد امتدَّت وحشية القتلة الساديين، من الطفل إلى الطاعن في السن، ومن الرجل إلى المرأة، ومن المسلم إلى المسيحي!.. إذ كان جنود النظام من سرايا الدفاع والوحدات الخاصة والمخابرات والمليشيات الأسدية.. كانوا ينقذون أوامر الجهات العليا، بدءاً من رئيسهم حافظ أسد، وانتهاءً بالضابط الطائفي الميداني الحاقد.. كانوا يستبيحون حماة بمن فيها وبكل ما فيها، بتشفيٍ ساديٍ لا يقوم به إلا الهولاكيون من العصور الغابرة، بل فاقت سادية هؤلاء الطائفيين سادية هولاكو وجنكيزخان في كثيرٍ من جوانب المأساة

* * *

كان نصيب الأطفال من وحشية عصابة النظام الأسدية وافراً، شديد الإجرام، فالأطفال كانوا ضحايا المجازر الجماعية والفردية، كما كانوا ضحايا التعذيب الوحشي أمام عيون أمهاتهم وأباهم، وكان بعضهم يموت بسبب الجوع أو فقدان الحليب اللازم لتنمية الرضيع، بسبب الحصار الخانق المضروب على المدينة (مثل رضيع من آل جنيد عمره خمسة أيام)، كما كان بعضهم يموت بسبب الخوف والذعر (مثل الطفل ماهر حلاق 9 سنوات)، خاصةً عندما كانت تُقتل الأم أو يُقتل الأب أو الشقيق أمام عيني طفلهم، وبعض الأطفال نجوا من المجازر الجماعية، فأصابوا باضطراباتٍ نفسيةٍ عميقة!..

كان الجنود الساديون يتغذّون في قتل الأطفال أو إرهابهم، كرمي الرضيع من الطوابق العليا للبنيات بحضور ذويهم، أو خلال حملات الإبادة لأسرِ بكمالها، أو بواسطة القناصين الذين يتقدّدون قتل الأطفال (مثل قنص الطفل محمد الزين 3 سنوات)، أو بتفجير الملاجئ ودور السكن بمن فيها.. حتى الأجنحة في أرحام أمهاتهم لم يأْمُنوا من القتل والتّنكيل، فقد كان جنود (الصمود والتصدي)، يعمدون إلى بقر بطون النساء الحوامل، للضغط على بقية أفراد الأسرة، ثم يستخرجون الأجنحة من بطونهن ويقتلونهم ذبحاً وتقطيعاً بحراب البنادق (متلماً حصل مع زوجة محمد الكاش وجنيتها من حي البارودية)!.. وقد سُجّلت الكثير من الحالات والأسماء لدى منظمات حقوق الإنسان، عن تلك الجرائم بحق الأطفال والأجنحة.. كما سُجّلت مجرزة كبيرة للأطفال قتل فيها عدد كبير منهم، أثناء عودتهم من استلام الخبر الذي كانت توزّعه على السكان سياراتٌ خاصة، إذ طلب منهم الجنود التجمع في (الجامع الجديد)، ثم داهموهم وأطلقوا عليهم النار، ليسقطوا جميعاً مضرّجين بدمائهم داخل الجامع!.. (انظر تقرير اللجنة السورية لحقوق الإنسان عن انتهاكات حقوق الإنسان خلال مجرزة حماة 19 شباط 2002م، وتقرير اللجنة الصادر في 1 شباط 2006م).

* * *

أما النساء، فقد نالهنّ ما نال الرجال دون تمييزٍ أو تفريق، فُقتل الآلاف من النساء كما قُتِل الرجال، فضلاً عن قتلهنّ خلال الدفاع عن أغراضهن أو أطفالهن، ضد جنود حافظ أسد وزمرة المافيوية المجرمة، كما قُتِلت نساء بهدف سرقة مجواهراتهنّ وحليّهنّ، وقطع أيدي أعدادٍ منهاً لاستخراج الحلبي من أذرعهنّ، وبعضاهن قُتلنَ انتقاماً من أزواجهنَ المطلوبين للمخابرات، وكذلك بعضهنَّ كُنْ يُقتلنَ بسبب أنهنَّ من عائلة فلانٍ حسب (براءة بهنسي 35 عاماً قُتلت في بيته مع خمسةٍ من أطفالها)، كما قُتلت بعض النساء بسبب مداواتهن للجرحى من أبناء الحي أو الأقرباء!..

لقد تعرضت النساء إلى حملات التعذيب الجسدي والنفسي، بالضرب حتى الموت، أو بتعذيب أطفالهن وأزواجهن قبل قتلهم أمام عينهن، أو برميهم من الأماكن الشاهقة، أو بقلع عيونهن أو بقطع أطرافهن.. كما كان الجنود يختطفون الفتيات الصغيرات من الملاجئ، ثم يعتذرون عليهن ثم يقتلونهن!..

* * *

أما كبار السن، فقد قُتل الآلاف منهم أيضاً، بالمجازر الجماعية أو بالقصف العشوائي للمدينة، أو بسبب انقطاع العلاج والدواء، أو بسبب الجوع، أو بالانتقام الفردي.. كما توفي عدد كبير من الطاعنين في السن، بسبب المرض أو انقطاع العلاج المنتظم الذي كانوا يخضعون له قبل حصار المدينة، أو بسبب الجوع (مصطفى العزي 72 عاماً: كيف مات جوعاً بعد قتل كل أفراد أسرته).. وبعضاهم قُتِلَ بسبب محاولاتهم دفن أبنائهم أو بناتهم أو زوجاتهم المقتولين والمقتولات، من الذين بقيت

جثثهم في العراء أكثر من أسبوعين، مع تهديد جنود العصابة الحاكمة الأهالي وتوعّدهم، كي لا يقوموا بدفن موتاهم (مثل قتل الحاج عبد المعين الأصفر من البياض)!.. (تقرير اللجنة السورية لحقوق الإنسان 19 شباط 2002م).

وقد أوردت تقارير منظمات حقوق الإنسان مثلاً، بأن العشرات من علماء الدين في حماة ومشائخها الطاعنين في السن، قد اعتقلوا خلال أحداث المجازرة ولم يعرف مصيرهم حتى الآن، من مثل: الشيخ (بشير المراد) مقتى حماة.. كما نقلت المعلومات أن الشيخ (أديب الكيلاني) استشهد أثناء قصف حي (الكيلانية).. وكذلك الشيخ (عبد الله الحلاق) الذي اعتقل من بيته أثناء المجازرة مع حوالي ثلثين رجلاً من أبناء حيه (حي الباشورة)، ثم نقلوا إلى منجرة في المدينة وأحرقوا فيها وهم أحياء.. وكذلك الشيخ (محمود الشقة)، الذي طعنه جنود حافظ أسد أمام بيته في حي (الحاضر) حتى الموت، وعمره كان يناهز الثمانين عاماً.. وكذلك بعض الشيوخ المسنّين المكتوفين، بعد أن داهمتهم قوات سرايا الدفاع بقيادة (رفعت أسد) أثناء وجودهم في مدرسة المكتوفين، فأحرقت لحاظهم ثم عذّبهم وقتلهم وأشعلت النار في ثيابهم لتحرق جثثهم، ومن هؤلاء الشهداء: الشيخ (شكيب)، والشيخ مقرئ القرآن (أحمد شامية)، والشيخ (أديب كيزاوي)..!!

* * *

إن ما وقع في حماة خلال المجازرة الكبرى فاق التصور، ولا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن يحصل بهذه الصورة في أي مكانٍ من العالم، ولم يحصل في سوريا مثله حتى تحت حكم أعني القوى الاستعمارية للبلاد، وذلك خلال الاحتلالات المتعددة عبر تاريخ سوريا.. فقد أساء الدكتاتوريون والمافيويون الأسديون لسوريا وشعبها وحضارتها، بهذه الهمجية المنظمة، التي مارسوها بتصورٍ حاقدة، وعقولٍ إجرامية، ونفوسٍ ساديةٍ لئيمة.

* * *

ثالثاً: التعذيب والتشفّي قبل القتل

القمعيون من عصابة النظام الفاسد.. يرون أن القتل فحسب.. لا يشفى نفوسهم المريضة، لذلك غالباً ما كانوا يعتذبون ضحاياهم وأسراهם بأساليب فاشيةٍ مبتكرة، وذلك قبل قتلهم أو إحراق جثثهم أو تقطيعها.. وقد نقلت الأخبار وصفاً لجرائم ارتكبها جنود (الصمود والتصدي)، يعفّ القلم عن ذكرها ل بشاعتتها وساديتها.. لعل منها: اغتصاب النساء حتى بعد قتلهن وهن ميتات، فأي ضميرٍ يشرى هذا الذي استطاع أن يتغافل مأساة حماة إلى هذا الوقت؟!..

التعذيب جزء لا يتجزأ من التركيبة النفسية للطغمة الحاكمة في دمشق، مارسوه ويمارسوه في السجون والمعتقلات منذ أكثر من خمسين عاماً.. مارسوه حتى الموت، وقد روى لنا خارجون من السجون السورية بعد عشرين سنة من اعتقاله.. أنَّ التعذيب بحقهم لم يتوقف طوال العشرين سنة التي قضوها في السجون المختلفة، فلم يكن الهدف من التعذيب انتزاع اعتراف أو لأجل تحقيقِ مخبرياتي، الذي يمكن أن ينتهي في يومٍ أو أسبوع.. بل كان بهدف تحطيم النفس، والإذلال، والتشفّي، وإشباع الغريزة الحاقدة، المتجردة من كل ما خلق الله عز وجل عليه الإنسان!..

أما التعذيب في شوارع حماة ومشافيها ومساجدها وساحاتها العامة ومحالها التجارية.. فقد كان أمراً آخر، مختلفاً عن كل ما يجري في السجون والمعتقلات.. كان أمراً فظيعاً رهيباً يعجز القلم عن وصفه!..

كان الجنود يداهمون المشافي، ليبحثوا عن الجرحى، فيقبضون عليهم وعلى الذين يعالجونهم من الأطباء أو الممرضات، ويقومون بحملات التعذيب الوحشيٍّ لكل هؤلاء، كالطعن بالحراب للجريح حتى الموت (مثل المواطن الجريح فايز عاجوقة)، أو شقّ صدور الجرحى وتركهم ينزفون حتى الموت، أو قلع عيون الأطباء (مثل الدكتور حكمت الخاني - طبيب عيون)، ثم

قتلهم!.. وكانت (فرقة الموت) التابعة لسرايا الدفاع الأسدية ترابط عند المشفى الوطني، لتعذيب الجرحى أو قتلهم، أو تقطيع أجسادهم، أو هرس أعضائهم، أو انتزاع قلوبهم من صدورهم (كما حصل للمواطن سمير قنوت).. ثم كانوا ينقلون الجثث أو بقاياها بسيارات النفايات، لدفنها في أماكن مجهلة!..

تعذيب الأطفال كان له نصيب في حماة، ومن ذلك، رميهم من الشرفات أو الطوابق العليا، وتركهم يتعدّبون مضرجين بدمائهم حتى الموت أمام أعين ذويهم!.. أو بدفعهم أحياء تحت الأنفاس وهم يصرخون ويكونون ويتولّون!.. وكذلك تعذيب الأمهات نفسياً بقتل أطفالهن أمام أعينهن، أو بتعذيب الرجال بانتهاك عرض نسائهن وبيناتهن أمام أعينهن.. أو بقطع أذرع السيدات والفتيات لسرقة حلبيّن منها!.. أو بالتعذيب جوعاً حتى الموت!.. أو ببتر الأطراف وفق العيون والضرب حتى الموت!..

بعض المواطنين عذّبوا بتقطيع أجسادهم قطعة.. قطعة، حتى قصوا نحبيهم (مثل المدرس عبد المجيد عرفة).. وبعضهم كانوا يُعذّبون بتهشيم الرؤوس وسحق العظام والخنق وقلع الأظافر والصعق الكهربائي والتجريح بالحراب في الجسد العاري.. والسحق بجنازير الديابات التي كانت تسير على أجساد الأحياء العراة.. أو بواسطة الكلاب المفترسة التي تنهش أجساد الضحايا الجرحى أو المותى!..

كانوا يجمعون الناس بالمئات، ويعذّبون بعضهم أمام بعضهم الآخر، للإمعان في التعذيب.. وكانوا أحياناً يستخدمون أساليب حرق اللحى والثياب.. للشيخوخ الطاعنين في السن، كما وقع للشيخ (عبد الله الحلاق 80 عاماً) وعشرات الشباب، الذين اعتقلوا مع الشيخ وجّمعوا في منجمة وقتلوا حرقاً.. أو كما جرى مع مفتي حماة الشيخ (بشير المراد)، الذي ضربوه وسحلوه، ثم أحرقوه حياً.. أو كما وقع مع مجموعة من الشيخوخ المكفوفين في مدرستهم التي داهمتها جنود حافظ أسد، وشرعوا بتعذيب الشيخوخ، وحرق لحاظهم، ثم بحرقهم أحياء، ثم بالإجهاز عليهم بالبنادق (منهم الشيخوخ: شبيب، وأحمد الشامية، وأديب كيزاوي)!..

من أساليب جنود حافظ أسد، أنهم كانوا يجرّدون الناس من ثيابهم في البرد الشديد، ثم يجمعونهم في المساجد، ثم يفجّرون المساجد بهم (كما وقع في مجزرة حي الشرقية)!.. أو كانوا يحرقون البيوت بمن فيها من النساء والأطفال، أو يحرقون الأشخاص في أفرانٍ عالية الحرارة، بعد تركهم عراة في العراء، مدةً طويلةً، نهباً للبرد والمطر والجوع (مجزرة معمل البورسلان)!..

التعذيب والتشفّي نهج ثابتٌ لحكام سوريا الظالمين، منذ أن تسلّطوا على رقاب الشعب السوري.. نتحدّى أولئك الهاّفين، أكانوا من المتواجددين إلى دمشق للهتاف بحياة القتلة واللصوص ومنتهمي الأعراض وذبّاحي كل القيم الإنسانية.. أم من الكتاب والصحفيين من مختلف الأقطار العربية، الذين يستخدمون دماء شعبنا مداراً لأقلامهم، لممالة النظام المجرم.. نتحدّاهم أن يواجهوا شعبنا الذبيح، سواء الآن أم في المستقبل.. فبأي وجوه سيواجهونه؟!.. بوجوه الصمود الكاذب، أم بجباه التصدي المزعوم؟!..

* * *

رابعاً: الإخفاء والتّهجير والنّهب

لم تقتصر مأساة حماة على القتل والتدمير، بل تعدّ ذلك إلى مآسٍ إنسانية أخرى ما تزال سارية المفعول حتى اليوم، أي بعد ثلث قرن.. لأنّه خلال المجزرة الكبرى، وخلال عمليات الإبادة التي استمرّت أكثر من شهر.. لم تنتهِ عمليات المداهمة

والاعتقال، بل اشتَدَّتْ إلى أضعافها بعد انتهاء المواجهات والسيطرة على المدينة من قبل جنود (الصمود والتصدي) الأسديين.. وكانت الاعتقالات عشوائية، طالت النساء والرجال والأطفال، فوصل عدد المعتقلين إلى عشرات الآلاف، حُشرُوا في معتقلاتٍ مؤقتةٍ بكثافةٍ شديدة، ويُجدر بنا -لتقدير شدة القمع والاضطهاد اللذين تعرّض لهما سكان المدينة- أن نذكر بأنه في (المدرسة الصناعية) وحدها.. حُشِّرَ خمسة عشر ألفاً من أبناء المدينة معتقلين!..

يكفي أن تكون حموياً في ذلك الوقت.. ليتم اعتقالك والتكميل بك!.. وعلى هذا، اعتُقلت مجموعات من الحمويين عند نقاط الحدود كانوا يسافرون دخولاً إلى سوريا أو خروجاً منها.. واعتُقل أعداد من طلاب الجامعات خارج حماة.. كما اعتُقل عدد كبير من الحمويين الذين نزحوا إلى محافظاتٍ أخرى فراراً من القتل والذبح على الهوية!..

الأعداد الضخمة من المعتقلين انقسمت إلى أقسامٍ عدّة، فمنهم من تمت تصفيته فوراً بعد الاعتقال، ومنهم من تمت تصفيته بعد حملات تعذيبٍ رهيبة داخل السجون المؤقتة، ومنهم من توفي جوعاً وبرداً، أو بسبب الأمراض التي كانوا يعانون منها.. والآلاف منهم اختفوا، ولا يزال مصيرهم مجهولاً حتى الآن، وقد قيل إنّ قسماً من هؤلاء سيقوا إلى قرى خارج المدينة، وتمت تصفيتهم بمجازر جماعية، ودفنوا في مقابر جماعية أيضاً (قرية براق، وسريجين، و...)، وبعضهمُ قُلُوا إلى سجن تدمر الصحراوي الرهيب، وتتم تصفيتهم هناك بالإعدامات المنظمة!..

الاعتقالات كانت انتقاميةً على الهوية، والتصفيات كذلك، كما حدث لآل المصري، الذين نادى جنود النظام عليهم جميعاً في أحد المعتقلات الجماعية المؤقتة، أي على جميع آل المصري أن يتجمعوا معاً، ثم حملوهم إلى مقبرة سريجين قرب حماة، وهناك تمت تصفيتهم جميعاً رحمة الله، ودُفِنوا في مقبرة جماعية!..

* * *

الإخفاء لم يكن بحق شريحة محددة، بل نال من كل الشرائح الاجتماعية، نساءً ورجالاً وأطفالاً وشيوخاً وعجزة.. وكذلك من الأطباء والمهندسين والعمال والصيادلة والمعلمين وأئمّة المساجد والمؤذنّين والخطباء والعلماء.. وغيرهم.. كما أنّ قوات النظام الأسدية، أخفت كل المقابر الجماعية التي تم فيها دفن عشرات الآلاف من الضحايا!..

عشرات الآلاف من أهالي حماة فرّوا من المدينة بعد انتهاء التصفيات، منهم من لجأ إلى المحافظات الأخرى، لاسيما محافظة حمص المجاورة، التي امتلأت مساجدها الكبيرة بالعائلات الحموية النازحة (مثل جامع خالد بن الوليد الشهير).. ومنهم من فر إلى خارج سوريا، إذ هاجرت عائلات كاملة، وتركت وراءها الوطن والدمار والماسي المتعدد.. وكانت قوات النظام الأسدية تلاحق العائلات في المحافظات الأخرى التي لجأت إليها، لتنكّل بأبنائها وبناتها اعتقالاً وتعذيباً وتشريداً وضاغوطاً نفسية!..

* * *

الذين قُتلوا أو هاجروا أو اختفوا.. نُهِبَتْ كل ممتلكاتهم، سواءً أكانت أثاثاً للبيوت، أم مجواهرات، أم أموالاً نقدية، أم محالاً تجارية، أم ورشاتٍ صناعيةً خاصة، أم سيارات.. أم غير ذلك.. فقد كان جنود النظام الأسدية يداهمون البيوت، وينهبون كل محتوياتها، ثم يُضرّمون النيران فيها، أو يعمدون إلى تفجيرها.. كما كانوا ينهبون المحال التجاريه، وبخاصّةً محال الصياغة والصرافة، وقد نُهِبَتْ بذلك أسواق كاملة، مثل (سوق الطويل) الذي يحتوي على حوالي (380) محلٍ تجاريٍّ، وسوق الصاغة، الذي يحتوي على عشرات المحال التجارية لبيع الذهب والمجواهرات!..

النهب الذي قام به جنود (الصمود والتصدي) لم يقتصر على الممتلكات الخاصة، بل تعدّها إلى المرافق العامة والرسمية،

فقد نُهِيَت محتويات المصارف (مصرف التسليف الشعبي، والمصرف التجاري السوري)، وكذلك نُهِيَت محتويات (المتحف الوطني)، ومحفوظات المؤسسات الاستهلاكية الرسمية كلها.. وذلك بنفس الطريقة التي نُهِيَت فيها محتويات المصانع الخاصة والحرفية الصغيرة!.. وتقدر قيمة المنهوبات بمئات الملايين من الدولارات!..

في مأساة حماة، جرى الذي لا يمكن تصديقه، والمختفون لم يظهروا حتى الآن، ولا يُعرف مصيرهم، والمهجرون القسريون لم يعودوا إلى وطنهم حتى الآن، والأموال المنهوبة بقيت في ذمة لصوص النظام الأسدية حتى اليوم.. وقد خلَّف ذلك كله مشكلات اجتماعية عميقه، كمشكلات الفقر وحصر الإرث، ومشكلات الزوجات اللواتي لا يعرفن مصير أزواجهن هل هم أحياء أم أموات، ومشكلات فقدان كل حقوق المواطنة للمهجرين الحمويين وبباقي السوريين.. حتى الجيل الثالث.. فهناك عشرات الآلاف من الأجيال التالية، لا تعرف السلطات عليهم حتى الآن أنهم مواطنون سوريون، فلا جنسية ولا وثائق سفر ولا هوية شخصية ولا اعتراف بزواج.. ولا أي نوع من الاعتراف بهم.. فهل هناك مظلمة أشد من هذه التي يعاني منها السوريون، جراء الممارسات الطائفية الحاقدة للنظام الأسدية الحاكم؟!..

* * *

خامساً: التدمير الشاملُ وانتهٰى المقدّسات

لم يكن النظام الأسدية الحاكم يتعامل مع حماة على أنها إحدى المحافظات السورية الكبرى، ولم يكن يتعامل مع سكانها على أنهم جزء من الشعب السوري.. وهذا في الحقيقة ينسحب على الشعب السوري كله الذي ابْتُلِي بهذا النظام الجائر الاستبدادي.. لذلك، فقد كان سلوكه يُمَاشِي سلوك أي محتل للوطن أو مستعمِّل خارجيٍّ غريبٍ عنه، وكانت وسائله لحفظ سلطته التي سلّمها بالقوة والانقلابات العسكرية، مبنيةً على سياسات الأرض المحروقة، وعلى القمع العنيف، والاضطهاد الدموي، والإرهاب، ونشر الخوف والرعب، والتضييفات الجسدية، والإقصاءات الظالمة.. وهذا بالضبط ما كان يسلكه النظام في (حماة) خلال عمليات صنع مأساتها العظمى، والماسي المتفرقة التي سبقتها أو تبعتها!..

خلال اشتداد احتجاجات الشعب السوري واعتصاماته وإضراباته، التي شملت المحافظات السورية كلها في عامي 1979 م و1980 م.. قام (رفعت أسد) شقيق رئيس النظام وقائد سرايا الدفاع (عن النظام وشخصياته) ونائب رئيس الجمهورية للشؤون الأمنية لاحقاً، بإطلاق خطٌّ فاشيةٌ للتطهير الوطني، وذلك خلال المؤتمر القطري السابع لحزب البعث، المنعقد بتاريخ (1980/6/1)، وفهو هذه الخطة الإجرامية هو: جمع الألوف من نخب الشعب السوري المعارضين للنظام، في معسكرات اعتقالٍ جماعية، تحت ظروف الأعمال الشاقة وعمليات غسل الدماغ، لتنفيذ ما أطلق عليه (زوراً) اسم: (تخدير الصحراء).. وما جاء في خطاب ذلك المعتمد في المؤتمر نفسه: [إن ستالين أثأها الرفاق، قضى على عشرة ملايين إنسانٍ في سبيل الثورة الشيوعية، واضعاً في حسابه أمراً واحداً فقط، هو التعصّب للحزب ولنظرية الحزب، ولو أنَّ لينين كان في موقع وظرف وزمان ستالين لَفَعَلَ مثله، فالآدمي التي تريد أن تعيش أو أن تبقى، تحتاج إلى رجلٍ متعصّب، وإلى حزبٍ ونظريةٍ متعصّبة]!.. وهذه العقيدة الحزبية هي بالضبط ما نفذه (رفعت أسد) وشقيقه (حافظ) في سوريا، لاسيما في حماة.. فقد كان الجنود ينفذون أوامر الجهات العليا (بدءاً من رئيسهم حافظ أسد) بالتدمير الشامل للمدينة، واتّباع سياسة الأرض المحروقة، قتلاً وحرقاً وتدميراً وإبادة!..

لقد دمَّر جنود (الصمود والتصدي) الأسديون مساجد المدينة، ومعظم تلك المساجد دمَّرت تدميراً كاملاً، وبعضها دُمِّر على رؤوس من فيها، وقد نقلت الأخبار أنَّ التدمير شمل (88) مسجداً، مع المراكز الإسلامية التابعة لبعضها، وقد أحصت اللجنة السورية لحقوق الإنسان في تقاريرها (63) مسجداً تم تدميره.. وأدى هذا التدمير الشامل لمساجد المدينة، المترافق مع قتل

الأئمة والعلماء والخطباء والمؤذنين.. إلى غياب الأذان عن المدينة حوالي ثلاثة أشهر، ومن أشهر المساجد التي دُمرت: (جامع الكيلاني والجامع الكبير ومسجد سعد بن معاذ وجامع السلطان ومسجد بلال بن رياح وجامع عمر بن الخطاب وجامع الشريعة.. وغيرها)!..

كما أُدِّت سياسة الأرض المحروقة التي سلّكتها النظام، إلى تدمير أربع كنائس، ونهبها، أشهرها كنيسة (حمة الجديدة) التي كانت تعتبر تحفةً معماريةً فريدة، واستغرق بناؤها سبعة عشر عاماً.. وكذلك تدمير أحياط كاملةٍ (مثل حي الكيلانية)، فضلاً عن تدمير مئات المنازل والمحال التجارية والمشاغل الحرفية والمصانع والمعامل والأسواق، بما في ذلك عيادات الأطباء (حوالي 40 عيادة) والصيدليات والمشافي والمراكمز الصحية.. ما أدى إلى تشريد عشرات الآلاف من سكان المدينة بلا مأوى أو مصادر للرزق أو مراكز صحيةٍ للعلاج!..

أما المدارس فقد دُمرت كلها تدميراً كاملاً أو جزئياً، إما بالتفجير المتمعمد (مثل: المدارس الشرعية ومدرسة زنوبيا ومدرسة العفاف والمدرسة الزينية.. وغيرها) بما في ذلك مدارس الأطفال والروضة.. أو بالقصف العشوائي (مثل مدارس: سعيد العاص وعمر بن الخطاب والبحترى، وروضة العنادل، وإعدادية بسام حمشو، وثانوية غرباطة للبنات.. وغيرها)، فضلاً عن تدمير كلية الطب البيطري!..

لقد طال التدمير أيضاً، كلَّ المعالم الأثرية والسياحية والثقافية في المدينة، كما جرى لحي الكيلانية القديم، الذي دُمر تدميراً كاملاً بكل قصوره ومعالمه الثقافية والأثرية التي تعود للعهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية.. فضلاً عن تدمير الزوايا القديمة والحمامات والمضائق والأقبية الأثرية.. وكذلك تدمير المقامات والمقابر، ومرابض الخيول العربية الأثرية، وناعورة واحدة في الأقل من نوعيات حماة الأثرية أيضاً.. مع نهب كل محتويات (متحف حماة الوطني)!..

* * *

لم يكن التدمير الذي طال البيوت السكنية أو المساجد أو الكنائس أو المعالم الأثرية أو المرافق العامة أو المدارس أو المراكز الصحية والعيادات والصيدليات.. لم يكن عشوائياً كله.. بل كان يتم بالتفجير المنظم في معظم الأحيان، بوضع عبواتٍ ناسفةٍ يقدّر وزنها أحياناً في بعض المساجد بآلاف الكيلوغرامات من مادة الـ (تي إن تي) شديدة الانفجار، وكانت مثل هذه التفجيرات لدور العبادة تثال من المسارك أو المدارس المجاورة، كما وقع لمدرسة (الراهبات) وبعض البيوت المجاورة أثناء قيام الجنود الأسديين بتفجير (الجامع الكبير) في المنطقة.. ولم يكن التدمير يحترم حرمة المسجد أو حرمة المصاحف والكتب الدينية التي بداخله.. بل كان يُفجّر ويُمتهن بكل ما فيه!..

* * *

لقد تغيّر وجه المدينة كلياً بعد التدمير الشامل لها ولمرافقها.. وقام النظام الجائر فيما بعد بعمليات إحلال مرافق عامةٍ حديثةٍ مكان المعالم الأثرية أو دور العبادة، كما جرى لجامع (المسعود) الذي تم تدميره وتحويله إلى ساحة موافق لسيارات الأجرة.. وفي هذا يقول الكاتب الصحفي البريطاني (روبرت فيسك) الذي تمكّن من دخول مدينة حماة خلال الحصار وأحداث المجازرة الكبرى (في شباط 1982م) ونقل صور بعض الجرائم التي شاهدها هناك، ثم عاد بعد عامٍ تقريباً إلى المدينة ليقول:

[.. وحقيقةً، عندما زرنا حماة في عام 1983م.. كانت المدينة القديمة، وأسوارها وشوارعها الضيقة، ومتحف قصر العظم.. قد اختفت كلها، والمشاهد الأثرية القديمة دُكّت وسُوِّيت بالأرض، وأصبحت موقفاً ضخماً للسيارات ..!] ..

* * *

إنّ مأساة حماة التي ارتكبها النظام الأسدّيُّ الحاكم.. أضخم بكثيرٍ من أن تُعَطَّى على حقيقتها الكاملة، مهما كتبنا وتحدثنا.. وبما أنّ النّظام القمعيُّ المجرم ما يزال يحاول طمس معالم جرائمه، فإننا نرى أنّ العرب والمسلمين والعالم كله.. مطالب اليوم بالتحقيق في هذه الجريمة الإنسانية المركبة البشعة، وفي كل جرائم النّظام السوريِّ التي اقترفها بحقّ سوريا وشعبها طوال أكثر من أربعة عقود.

* * *

ستبقى مأساة (حماة) ومجازرها المروءة وأحداثها الإجرامية التي ارتكبها النّظام الأسدّيُّ الفاجر.. ستبقى وصمة عارٍ في جبين الإنسانية، إلى أن يعمل الشرفاء على إحقاق الحق، وإزهاق الباطل ومحاسبة أهله.. وسيبقى النّظام الأسدّيُّ المتسلط على رقاب شعبنا السوريِّ.. مسؤولاً وحده عن كل قطرة دم سُفكَت في حماة، وعن كل روحٍ بريئةٍ أُزْهَقت، وعن كل قرشٍ أو متراعٍ نُهب، وعن كل معاناةٍ لأبناء حماة وبناتها، وعن كل مأساةٍ سببها التهجير أو الاعتقال أو الإخفاء أو حملات الإبادة الشاملة، وعن كل ثروةٍ وطنيةٍ أثريةٍ وسياحيةٍ أو مُقدَّسٍ دمره الطغاة الأسديون، وعن كل انتهاكٍ لحقوق الإنسان السوريِّ، اقترفه الأسديون الطائفيون المجرمون.

* * *

المسلم

المصادر: